

الحديقة

قصة بقلم اديب نحوي

لكن البنت سألته : - يا مختار .
قال لها بأدب ، وهو يفض من نظره :
- نعم يا خانم . أمرك ؟

فأفهمته : لأنه اذا لم تكن ، عندكم ، في هذه الحارة ، حديقة ، ليشم
فيها الاطفال ، الهواء النقي ، فانهم يمرضون ، وتصير وجوههم صفراء ،
بلون الليمون ، هل تفهم يا مختار ؟
فنظر اليها المختار . وسكت .

قالت له ، مرة اخرى : - الاتفهم ؟ هل انني احكي بالتركي ؟
قال : - عدم المؤاخذة يا خانم . انا مختار هذه المحلة ، وأفهم فسي
معاملات الولادة والزواج والوفاة ، هذا شغلي ، ولا أفهم غير ذلك .
فعند ذلك ، غضبت البنت ، اكثر واكثر . واخبرته :
ان الحكومة التي عينته مختارا لهذه الحارة ، هي حكومة مجرمة .
وأنها تعين أمثاله ، ليستكروا عنها .
أف أف أف .

هكذا حكمت البنت عن الحكومة ، دفعة واحدة : وأن عليه ، اذا كان
رجلا شريفا ، أن يطالب للشعب بحقه .

ان مختار الحارة ، القصير ، النحيل ، الهرم ، خاف من هذا الكلام
كثيرا . وفكر لنفسه : « الله يكفيننا شر هذا اليوم » . ولم ذبل فنيازه
بيديه ، وفكر أن ينهزم . فكر : « أنا ، مالي وهذه المشاكل ؟! وهذه بنت
- الله يسترنا - تحكي مثل اولاد الحارة المشافيين ، الذين يسبسون
الحكومة ، في الليل والنهار . كان مسبتها عندهم ، تسابيح الصلاة .
أقول لهم : « صلوا على النبي احسن » فيسبسون الحكومة ويقولون :
« أنت يا مختار ، ذنب لليكوات . وزمانهم ولي يا مختار » ويضحكون
أقول لهم : « اسمعوا مني يا اولاد ، واقعدوا عاقلين » فيقولون : « احسن
لك أن تسكت . ولولا أن ابنتك محمد علي ، هو رئيسنا في العمل ، وأول
ثوروي ، كنا قلعتك من هذه الحارة ، من زمان . يا حسرتي ؟ : رئيسكم
في العمل ، أم في الحبس ؟! الله يلعنكم . لانه : يومين في الشغل ،
وشهرين في الحبس ، من كثرة ما يشاغب ضد الحكومة » .

هكذا ، حكى المختار مع نفسه ، بينما سلوى خانم ، تحكي له عن حق
الشعب . وفكر المختار كذلك ، بآخر مرة : أخذوا فيها ، ابنه محمد علي
الى الحبس ، لينام ستة شهور ، وأنه لم يخرج بعد ، من هناك ، حتى
اليوم ، لما طلع ، هو والعمال في المظاهرة ، من معمل الحاج وهي
الحريري في عين التل ، وقف العكروت ، على باب المعمل ، كأنه عنتر
ابن شداد ، وبرم شواربه ، وقال : شيلوني يا شباب . الله يلعن نفسك!
من يقدر أن يشيلك ؟! طويل وتخين وأهبل . ووزنك أثقل من وزن البقل!
ومكبر الشوارب على قلة فائدة ، وما في عقتل . قال ، شالوه على
اكتافهم ، اربعة . كل واحد بطول الحورة ، حتى قدروا ان يشيلوه .
وصار يصيح ، من فحف رأسه ، مثل الثور الفلتان : « تسقط الحكومة
الافتطاعية يا .. » والمجانين وراءه ، الف واحد واكثر ، يصيحون : « تسقط
تسقط تسقط » .

وبعدما ، علفت بينهم وبين الشرطة . حكوا لي ، العكاريت ، لمسا
رجعوا ، قالوا : ابنك رفع راس حارتنا . هجم على الشرطة قدامنا ،
وعلفت . طبق طاق طبق . تسقط الافتطاعية . تيمش العمالية .
ايه يا عيني . وبعد ذلك ، كمشوه ، الشرطة . والحكومة ما سقطت .

لما باشرت الباحثة الاجتماعية الانسة سلوى دهان ، الوظيفة في مديرية
العمل ، أول مهمة لها ، بعد أن عادت من البعثة ، بالطواف على الحارات
القديمية عند ابواب حلب ، لتدرس احوال العائلات هناك ، أدهشها أمر
غريب جدا ، لا يجوز السكوت عليه : ان مئات من الاطفال الساكنين
في بيوت تلك الحارات ، لا يتمتعون بصحة جيدة على الإطلاق . فكيف
يخصل ذلك ؟! وهؤلاء الاطفال هم عدة الوطن في المستقبل ، كيف ؟! لقد
استغربت الأمر كثيرا . وصارت تسجل عندها ، في الدفتر ، ملاحظات
كثيرة ومهمة ، وبعبارة قاسية : كالاهمال والتقصير ، اهمال دوائر
الصحة ومعها البلدية ، توفر الشروط اللازمة في المساكن ، حتى تكون
صحية ، وتفسير الحكومة في مساعدة هؤلاء المواطنين ، حتى يتمكنوا
من تربية اولادهم تربية سليمة ، وغير ذلك من الكلمات الشديدة .

فلما وصلت ، ذات يوم ، الى حارة التلة السوداء ، خارج بسباب
قنشرين ، واستقبلتها رائحة كريهة ، هي ما ينتشر من الكهاريز المفتوحة
في منتصف الازقة ، ودارت على البيوت هناك ، بصحة مختار الحارة ،
فوجدت أنها لا تشبه بيوت الأدميين على الإطلاق ، بل تشبه الاصطبلات
حيث يمكن أن تعيش البهائم فقط ، وأن ليس بين مئات الاطفال في تلك
الحارة ، طفل واحد سمين ، خبوده حمراء ، انزعجت كثيرا . ونظرت
في الازقة ، هكذا ، نظرة حزينة ، وهي تخرج من بيت ، لتدخل الى بيت
آخر ، فشاهدت ان الاطفال المساكين - يا حرام - يلعبون ، وأرجلهم
الحافية ، تفوس في اقدار الكهاريز ، ويتراشقون بكلمات من النجس ،
ويمسكون ، بعد ذلك ، - يا لطيف - أي شيء بأيديهم ، ليضعوه فسي
افواههم .

فانها غضبت ، كثيرا ، كثيرا ، عند ذلك .
وفكرت :

ألا يوجد في هذه الحارات ، على الأقل ، على الأقل ، حديقة ؟! ليشم
الاطفال فيها الهواء النقي ، ويلعبوا هناك ، مع بعضهم البعض ، بدلا من
ان يلعبوا ، في اقدار الكهاريز ، ويتراشقوا بالنجس ؟! فاذا كان الناس
- لفقهم - لا يستطيعون السكن في بيوت صحية ، أفلا تستطبع
الحكومة ، وعندها مئات الملايين ، أن تشيء لاطفالهم ، في كل عشرين
حارة من هذه الحارات ، حديقة واحدة ؟!

ثم أخذت الانسة سلوى ، تحكي مع نفسها - بفضب - وهي تمشي
بعذر ، في ازقة الحارة ، بلزق الحيطان ، خشية ان تنزلق قدمها ،
فتفوس فورا ، حتى ركبتها ، في احد الكهاريز : ألا يوجد في هذه
الحارة حديقة ؟!

ومختار الحارة الهرم ، تعجب ايضا ، لكن ، من سؤالها ،
فسألها بدوره ، وهو يمشي جنبها :
- يا خانم ، أي حديقة ؟

فوقفت ، والتفتت اليه ، وفتحت عينيها في وجهه بدهشة . فجمد
المختار في مكانه ، وخاف ، أن يكون سؤاله ، في غير محله الاصولي ،
بينما رئيس المخفر أوصاه ان يدير باله على البنت ، لانها موظفة مهمة
من دائرة العمل والشؤون الاجتماعية ، ومعها شهادة عالية ، حصلت عليها
من بلاد الاجانب ، وتدرس احوال العائلات ، وتكتب كل ما يجري معها
في الدفتر ، لترفعه الى مدير الدائرة . يا ساتر .

وأخذه للحبس ، بعد أن قتلوه ، قتلته ، بنت كلب . وهو الآن ينام في الحبس سنة أشهر . طيب . ماذا استغفنا ؟ وهذه البنت ، تحضر اليوم الى حارتنا ، وتحكي كذلك ، عن الحكومة المجرمة . لا يا ستي . أنا مالي علاقة ، وحق سيدنا زكريا . الحكومة على راسي وعيني . والله يطول لذا عمر الحكومة .

لكن البنت ، ظلت واقفة قدماه ، وتحكي عن الحكومة : انها مجرمة . لانها تترك الاطفال يمرضون ، وتصير وجوههم صفراء . استعنت عليك ، بالله ، يا بنت . قال ، وتسأله : - ضربة تشمط رقبته - يا مختار ، قل لي : ألا توجد عندهم في الحارات القريبة من هذه الحارة ، حديقة ؟ لك يا بنت ، اي حديقة !! وما دخلي ، أنا ، بذلك ؟! يتزوج الواحد ازوجه . نعمل المعاملة ، ونذهب الى المحكمة الشرعية ، ومعنا العروس ، يعني : نأخذ اختها . الكبيرة ، بدلا منها ، ونقول للقاضي : هذه هي العروس . لانهم لا يوافقون - في المحكمة الشرعية - على زواج الصغيرة تختم على ذلك يا مختار ؟ نعم ، أختهم . وستين أختهم . بشرح اللسه وستة رسوله . واذا أنا ما ختمت ، كيف أرزق من اهلها بعشر ورقات سوري . أختهم يا سيدي ، أختهم . فان ولد لهم ولد . أختهم على ورقة الولادة ، بورقتين سوري ، اذا انها بنت ، اما للصبي ، فلا اقبل بأقل من خمسة . لا يمكن أن اقبل . واذا الواحد مات : أختهم الورقة الصفراء ، انه مات . ولا اقبض منهم ولا متليك ، ان كان اهل الميت جماعة دراويش . هكذا ، نعم ، لأن المركب الذي ، ما فيه شيء لله يفرق هذا هو شغلي يا بنت . انزلي عن كنتفي ، الله يسترك . فما علاقتي ، أنا ، ان كانت حكومتك مجرمة ، اوفير مجرمة !

ورفع المختار رأسه ، ونظر الى البنت ، فوجد أنها أخرجت الدفتر ، - هكذا في الزقاق - لطفك يا رب ، ماذا تكتب . وبعدها ، يقولون ، في دائرة الاجتماعية ، ان مختار التلة السوداء ، علمها ان تكتب . ضد الحكومة . لا يا بنتي . ايدي في زنارك . دخيل عرضك . لا تكتبي . ووجد المختار ، أنه اخذ يحكي ، غصبا عنه ، بصوت مسموع هذه المسرة .

بلغ ريقه . بعد ان شعر ان حلقه قد نشف . واصابعه تلعب بشعر ذقنه الابيض . وصار يفهم :
- يا بنتي ، لا تكتبي اي شيء . الله يسترك ، ويرزقك بعريس ابن حلال .

وفكر : - اذا كانت غير متزوجة ، فانها هكذا ، تبسط . فنظرت اليه البنت ، وقد احمر وجهها كثيرا ، وخجلت . لا بد انها انبسطت . لكن ، تبدلت نظرتها بصمد ذلك ، وصارت تزور المختار ، بفصب . وضربت بالقلم على الدفتر . يا ساتر ، هذه ، والله العظيم ، بنت ثوروية . عمالية . مثل ابني محمد علي . لازم انها كذلك . وابني حكى مرة : ان عندهم في الثوروية ، بنات . وتقاتل عند اللزوم ، مثل الرجال . فلا بد ، ان هذه البنت ، هي الرئيسة . اي والله العظيم ، لا بد .

ثم قالت له بعصية :

- اسمع يا مختار . لا تهمني انت . بل يهمني الاطفال . أنا درست مشكلة الاطفال ، ست سنين في الجامعة . وهذا اختصاصي . وواجبي ان اكتب للحكومة ، من اجل أن تنشئ لهم حديقة ، في هذه الحارة . لكن المختار ، وجد نفسه ، وهو يحكي من خوفه :

يا خانم . نحن .. نحن .. يعني .. نحن .. عندنا حديقة . يوجد عندنا ، كل شيء . الله يخليك يا بنتي ، لا تكتبي في الدفتر اي شيء . بعدها ، يحضر رئيس المخفر ، ويجرني على وجهي ، ويعمل لي قتلته بنت حرام . الله يوفئك . اکتبي .. أنه ، توجد عندنا حديقة ، وخلصيني الله يخلصك من نار جهنم .

فتعجبت الأنسة سلوى ، من هذا الكلام ، كثيرا .
شاهدها المختار ، وهي تطوي الدفتر ، وتعيسد القلم الى جيبتها ، وتسأله :

- أين توجد عندهم ، الحديقة ؟!

وكان عدد من اهل الحارة ، قد تجمع امام الدكاكين ، ويضحكون . ويؤشرون بايديهم ، الى البنت والمختار ، ويحكون من بعيد ، أن شوفوا يا ناس ، مختار حارتنا ، صالح ، يمشي مع هذه البنت التي لا تغطي وجهها او شعرها بالملحفة !! - الله يستركنا - وتمشي في الزقاق ، كاشفة وجهها وشعرها بلا حياء ، كأنها قاعدة في بيت اهلها ، مع النسوان ولا تخجل .

وولد صغير ، على باب أحد البيوت . ظل ينادي امه : « يامو .. يامو ، اركضي وتفرجي » حتى فتحت له الباب .
فصاح :

- يامو ، شوفي . واحدة تمشي في الزقاق ، بلا غطا .

فتهرته امه : - يا شيطان ! وجرته من يده ، وادخلته الى البيت . لكن مدت رأسها ، قبل ان تطلق الباب ، ونظرت ، فشاهدت ، تلك البنت . يا حفيظ . سترك يا رب . اللهم ، تحفظ علينا العقل والدين . واغلقت الباب . وركضت ، لتحكي لحمايتها ، ما شاهدته اليوم ، في زقاق حارتهم ، من عجائب غرائب .

وصالح سطل ، فكر ، لما رأى ذلك : يعني ، والله العظيم ، لسو اني ، مت البارحة ، لما كان خطر لي ، انه ، تأتي هذا اليوم ، السي حارتنا ، بنت ، وهي موظفة عند الحكومة ، كأنه لا يوجد عند الحكومة ، رجال من الافندية . بنت صبية ، وما هي صغيرة . بشعة . نعم ، بشعة . سمراء زرقاء . لكن ، طويلة . وصدرها يموج ، كأنه ، شجرة رمان ، يا ساتر . ولها ، عيون ، لو كانت لبنت حلوة ، غيرها - يا لطيف - كانت ذبحت بها ، مئة شاب ، من رقابهم ، وهي تضحك . نعم ، لسو اني كنت مت البارحة ، لما خطر لي ، ان بنتا في عز صباها ، تأتي ، اليوم ، الى حارتنا ، وهي لا تغطي بأي شيء - ربي كما خلقتني - ، ويقول لي رئيس المخفر : امش معها ، يا مختار ، من بيت السي بيت ، لتدرس . تدرس !! ماذا تدرس ؟ ان شاء الله ، يدرسونها في البيدر . وانا امشي معها ، يا عيني ! وعند صلاة العشاء ، هذه الليلة ، يمسكني العجائز من اصحابي ، من اهل حارتنا . يمسكونني من ذقني ، ويشدونها . ويمزحون معي : - يا صالح سطل . كيف تمشي مع بنت سافرة ، في الزقاق ، ولا تستحي !! يا صالح سطل ، على الكبرة ، جبة حمرا ؟!

ويشكونني ، لشيخنا عبد القادر حسنا ، امام المسجد ويقولون له : - هل سمعت يا شيخنا . !! فان مختار حارتنا ، ظل طول هذا اليوم ، يمشي مع البنت السافرة . يدور معها ، من مطرح السي مطرح ، في الحارة ، بلحيتته البيضاء ، وهي ، لا تغطي . فما قولك ، في هذا الامر ، يا شيخنا ؟ اليس انه حرام ؟ فماذا اقول لشيخنا .. ؟ عندما ينظر الي ، وهو يتنسم . ووجهه ، كله ، نور وتقوى . ويعاتبني بعينيه : « كيف تفعل ذلك ، يا صالح سطل ؟ »

اقول له : « يا شيخني . هذه البنت حضرت من طرف الحكومة . انا المختار ، والشرطة امروني ، ان امشي معها . ولا يطلع بيدي شيء يا شيخني . والله العظيم ، ما خرجت معها الا غصبا عني . والا يعمبل لي ، رئيس المخفر ، مشكلة ، ولا اخلص منها بالهين » .
وكانت الأنسة سلوى ، قد عادت ، لتقطع عليه ، الان ، مرة اخرى ، سلسلة افكاره ، بالسؤال :

- يا مختار . تقول ، انه توجد ، عندهم حديقة . لكن اين ؟ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، من هذه البنت العنيدة . مرة اخرى ، الى الحديقة !! ما خلصنا ؟

وارتبك صالح سطل كثيرا : طيب ، ماذا اقول للبنت ؟

فسألته من ناحيتها ، هذه المرة ، عن التفاصيل :

- يعني ، حديقة مثل العادة .. !! فيها حشيش وشجر وزهور ؟

قال لها ، مستعجلا ، وهو يمشي قدماها :

- نعم يا خانم . فيها حشيش وشجر وزهور . وكل شيء .

وفكر : حتى تنزل عن كنتفي . العمى . عمره ، الواحد مس يحكي كلمة قدام النسوان . صحيح ، المرأة بنصف عقل . ولا تعرف سوى اللت

والعجن بالكلام . العمی . علفت وحكيت كلمتين مع هذه البنت ، وما عدت اخلص . الله يسترك يا بنت . احسن لو كان ابوك زوجك من ولد ابن حلال ، وقعدت في البيت ، مع دزينة اولاد ، وانشفلت بهم عسن الحديدية . حريقة تحرق نفسك ونفس الحديدية .

وقال صالح سطل ، وهو يمشي امامها ، لعل وعسى انها تنسى الحديث عن تلك - المصيبة - الحديدية :

- تفضلي يا خانم . حتى نرور بيت طه نجار ، وهو ساندس بيت عندك في القائمة ، التي رتبناها اليوم ، في المخفر . ويبقى عندنا ، بعد ذلك ، اربع زيارات .

وتنهد ، وقال في سره : « واخلص من هذه الورطة مekk » .

فمشت الانسة سلوى وراءه .

وكانت شمس شتوية ، صفراء اللون ، تطل مترددة ، من بين غيوم رصاصية . حتى الشمس ، في هذه الجارات ، كثيية ! فلما التقت اليوم ببعضها البعض ، فوق الحارة ، وغابت الشمس في لحظة واحدة ، رفعت سلوى عينها الى السماء ، وهي تفكر بحزن : « كان لهذا الحي ، سقفا . كان له ، سقفا سماويا لا يمكن ان تنفذ منه الشمس ، او البهجة . فاذا دخل الواحد اليه ، تلفه التعاسة ، كانها كفن ابيض ، لا يفتح لصاحبه ، سوى ، باب القبر » .

وكان المختار قد دق على باب بيت طه نجار . على كتف الطريق ، وصاح : - ابو صطيف .

فاجابت ام طه ، من داخل الدار : « من يريد » ؟

قال صالح سطل :

- انا المختار يا ام طه ، ومعني موظفة الاجتماعية . يعني : الخانم ، من دائرة الاجتماعية ، لتعمل لكم ، زيارة اهلية .

وغمز بعينه للانسة سلوى ، ووشوشها :

- لان الناس عندنا ، يخافون من زيارات الافندية ، تبع الحكومة ، فانا هكذا ، اطمنهم .

واجابته ام طه . فاتي صوتها ، مرتجفا ، وتعيسا ، وخافتا ، كانه صادر من اعماق الجب ، لا من وراء الباب :

- دقيقة واحدة ، يا مختار ، حتى نتطفى . فمانبها صالح سطل ، ولم يسكت :

يا عيني على ذوقكم . افتحوا الباب حتى تدخل الخانم ، ولا تنتظر في الطريق . لانها ، ولو انها موظفة عند الحكومة . لكنها بنت . يعني : حرمة . وتكتب للحكومة في الدفتر - خزيت عنها العين - عسن احوال الخلق المساكين ، مثل حكايتنا .

وغمز لسلوى بعينه ، بما معناه : - اليس كذلك ؟ فابتسمت له سلوى : - نعم . وهو كذلك .

وانبسط صالح سطل ، قليلا . لعلها هكذا ، تنسى حكاية الحديدية .

دخلت الانسة سلوى ، الى بيت طه نجار ، ووراءها المختار . ههنا ام طه . وجهها اصفر . وعيناها حزينتان . حرمة . تكاد لا تقدر ان تقف على قدميها . ومطوية طاقيين . كانها غرض عتيق لم يعد له اي نفع كان .

سألها صالح سطل ، عن ابنها طه : « هل انه ان شاء الله ، وجد اليوم شغلا ، وخرج ليشغل به ؟ »

فقالت له : لا . انه خرج لبييع قنبازه الجوخ ويشترى بحقه ، الاغراض للولد .

فاجابها ، وقد زعل :

- انا قلت لكم ، لا تبيعوا اي غرض . ونحن نجعم لكم كل يوم ، حق الخبز ، من الاجاويد .

قالت له ، ام طه :

- والله ، لا اترك الولد يخرج من بيتي ، دون ان تجهزه . لانه ، ما هو صغير - حتى لا تجهزه حسب الاصول .

قال لها - وسلوى لا تفهم من الامر شيئا :

- حرام يا ام طه . ان تسلفوا . وهذه ارادة الله . فهل انتم اكرم من الله ، حتى تسلفوا ، قبل ان تتم مشيئته .

قالت ، وفتحت له ، باب الغرفة :

- يفر الله لنا . ونحن عباده .

وكان الولد ، متمددا في الفراش . وفوقه لحاف ، جوانبه مزفتة من كثرة ما هو وسخ . وامه : امرأة في الثلاثين . تترد بيد ، فوقانية ملحفتها السوداء ، على وجهها ، ويبد اخرى ، تمسح العرق عن وجهه الولد ، بالحرمة .

قالت ام طه : - تفضلي ، واستريحي .

فقعدت سلوى على كرسي القش الواطي . وقعد صالح سطل ، على الارض .

قالت ام طه : - صاروا سبعة اولاد . اكبرهم عمره عشرة . ويلعبون في الزقاق . وابوهم ، لا يحصل على الشغل في الورشة ، ايام الشتاء . لان الناس ، لا يبنون العمارات تحت المطر . وامهم . يصيرون ثمانية . وانا جدتهم ، زيادة في العدد . الله يقرف عمري ، ويخلصهم مني ، كرامة للنبي محمد . لان عمري صار ستين سنة ، وكفاية ، ماعشت من هذه السنين السود . لعل وعسى ، اخفف الحمل عن ابني طه .

واشارت الى الولد ، في الفراش :

- وهذا حسن . عمره ، خمس سنين . الولد الوسطاني وهسو مريض من شهرين . ولا يمشي على رجليه . وانا احبه . تعلقت به . لانه من صفه ، مشلول من رجله اليمنى . ولا يمشي حين يقوم ، الا على رجل واحدة . واليوم لا يمشي ، ولا على رجل . وانه مسافر .

واوما الولد بيده ، وتحرك . فمالت عليه امه . ورفعت رأسه بين يديها . وقعدت ام طه ، جنبها . وكل واحد احتضنته من طرفها .

ونظرت سلوى اليه . فالان ، رأت وجهه ، بوضوح . اذ يسقط ضوء النهار من الشباك ، عليه ، الان ، مباشرة . وجمدت سلوى ، على الكرسي ، من المفاجأة . يا الله . ما اجمل وجه هذا الطفل !! يا رب . ما احلاه .

ما احلاه !! تقاطيع وجهه ، كم هي منسجمة !! كانها صياغة صانع ماهر .

جلت قدرة الصانع الاكبر . . بجبينه العريض ، وشعره الاسود الفاحم ، وانفه الرقيق ، وعينه . . سبحانهك يا صاحب الملكوت على عرشك .

كيف تخلق العيون الحلوة لاطفال التلة السوداء !! ما اصفى عينيه ، وما اكبرهما ، وتضيق عند النظر اليهما ، هموم الخليفة ، والارض ، ولا يخطر

بالبال ، غير صفاء السماء ، وان الملائكة يطيرون فسي ممالكها الرحبة الالهية ، فرحا ومجبة .

هتفت سلوى ، عندما وقعت عينها على وجهه الطفل المريض ، بدون وعي :

- يا الله . ما احلاه !!

ولم تجد نفسها ، الا وهي راكعة امام الفراش على ركبتها . وقد تناولت الطفل بين ذراعيها . وضمته الى صدرها . آه . . وها هي تقبله على خديه الشاحبين . يا الله . . وعشرون دمة مرة ، تسناب متلاحقة ، من عينها الحلوتين ، على خديها .

قالت وهي تتعجب من خلال دموعها : انها لم تشاهد ، طيلة حياتها ، طفلا ، اجمل من هذا الطفل ، على الاطلاق .

وسألتهم وهي محتارة : - هل هذا ابنيكم !!

فابتسم صالح سطل وهو حزين . وفهم : فهم ، انسه لا يمكن ان يخطر على بال الناس الاخرين ، ان بإمكاننا نحن ، اهل التلة السوداء ، ان يولد لنا ، مثل هؤلاء الاطفال الحلوين . نعم . فهم . وفكر بأسى :

لكن الله يخلق جميع الاطفال مثلما يخلق الزهر على امه . وبعد ذلك ، يأتي دور البشر . فاما انهم يسقون الزهور بالماء ، فتعيش . واما انها تذبل وتيبس .

وكان الولد ، يؤشر بيده ، ويتحرك . فبكت جدته ام طه . وقالت :

- حسن مسافر . فاعطوني اياه ، لاودعه .

فاعطوها اياه . وامه ، انفجرت بالمويل . فهمس صالح سطل ، للانسة سلوى ، انه ، يجب علينا ان نخرج من هذا البيت . لان اهله مشغولون بانهم المريض . فوافقته سلوى ، وهي تمسح دموعها ، ونهضت

وخرجا الى الزقاق . بينما صالح سطل ، يحدثها ، ومن اجل ان يشغلها

العظيم - ليشتري لها بحقه الدواء . وعندما قتل الشرطة ، من ثلاث سنين ، احد رفاقه في العمل ، اثناء المظاهرات ، بالرصاص . يا لطيف ! فانه بقي ، اكثر من شهرين ، وهو يذهب ، كل يوم الى الجبانة ، ويقعد قدام قبره ، ويبكي عليه . كانه اخوه ومات . وانه ، الان ، ينام في الحبس . طيب . ينام . ما عليه شيء . الحبس على كل حال ، احسن من بيتنا بكثير .

ظل المختار ، هكذا ، مقدار ساعة من الزمن ، يحكي لسلوى ، عن ابنه محمد علي . حتى اتى رجل ، ومعه امرأتان . دخلوا الى المقبرة ، مع قدم المساء ، وسلم الرجل ، عندما مروا : ان السلام عليكم . ومشى بالحمل الذي بين ذراعيه . واقبلت وراءه ، من بين الانثيين ، امرأة عجوز . وجهها مكشوف ، وتسحب رجلها خلفها سحبا . فمرفقتها سلوى . هتفت وهي تنهض منعورة :

- هذه ام طه . فهل .. هل ..؟

فقال لها ، صالح سطل :

- نعم يا خانم . فذلك الرجل هو ابوه : طه نجار . ويحمله بين ذراعيه . ومعه زوجته وامه . وقد جاءوا جميعا ، ليدفنوا ابنهم حسن . احلى طفل ، وقع عليه نظرك في هذه الدنيا ، طول حياتك . تعالي ، في الربيع الاتي ، وانظري ، كيف ينبت الزهر ، فوق قبره ، هكذا ، بمشيئة الله ، ومن دون ان يزرعه من الخلق ، احد . وكان المطر ، ينزل قليلا . ثم ، غزيرا .. غزيرا . وصالح سطل يحكي لسلوى ، في طريق العودة الى باب قنشرين : انه الله . ومن اجل ان يسقي ، هناك ، للاطفال ، ارض الحديقة . (١٤)

اديب نحوي

حلب

(١٤) من مجموعة « حكايا للحزن » التي تصدر قريبا عن « دار الاداب » .

صدر حديثا :

الناس في بلادي

للشاعر صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من الديوان الاول لاحد زعماء مدرسة

الشعر العربي الحديث واحد رواد النهضة الشعرية

المعاصرة .

منشورات دار الاداب

الثلث ٢٥٠ قرشا

- ان جدة الولد ام طه ، تتوقع موته ، وتريد ان تجهزه ، بالكفن والحنة ، حسب الاصول ، لذلك ، ارسلت ابنها ، ليعيب قببازه الجوخ ، ويشتري بحقه الاغراض .

فلم تجبه سلوى . لانها كانت قد شردت بذهنها بعيدا . ان افكارا حزينة اخرى ، كانت تزدهم في خاطرها . فكرت هكذا : ان هذا وطني . وهؤلاء الاطفال ابناؤه . فلماذا ، اني لا ارى فيسه ، شيئا ، يخصهم . سوى الكهريز المفتوح ، والعملة في البوابات والشلل . وآباء ، لا يجدون الشغل . فيبيعون ملابسهم حتى يشتروا لاولادهم ، الكفن والحنة . ان هذه الحارة ، وطني . وشاهدت فيها اليوم ، اجمل طفل وقمت عليه عينايا ، طول حياتي . لكن ، اين الشمس ؟ لتشرق عليها . اين هي ؟ هذا وطني . لكن ، لا تشرق عليه الشمس ابدا . ينام ويستيقظ ، في الظلام . في الظلام .

ظلت تفكر باسى :

هذا وطني . نعم . لكن ، كاني فيه غريبة .

وهي تخرج مع المختار من بيت ، وتدخل الى بيت : لماذا انسي درست في الجامعة ، ست سنين ، لماذا اذا انا لا اقدر ان افعل شيئا ، لهؤلاء الاطفال ؟ ثم وجدت نفسها ، تبكي ، مرة اخرى . هكذا ، بصمت ومرارة ، نزلت من عينيها ، دمعتان ، وهي تودع المختار ، بعد اخر زيارة . فزعل صالح سطل ، كثيرا ، وتأثر . وفكر : ان هذه بنت آدمية .

قال لها : يا خانم . انا تحت امرك ، فلا تزعلي . الله كريم .

وفجأة ، وجد نفسه ، يسألها ، من دون ان يفكر :

- يا خانم ، هل تريد ان تتفرجي على الحديقة ؟

اجابته بحزن : - نعم اريد .

فقال لها : - طيب . تعالي معي .

ولم ذبل قببازه بيده ، ومشى امامها . فتبعته ، حتى خرجا من الحارة ، مخلفين وراءهما ، الازقة والبيوت . فهناك امتدت ارض خالية ، تعانق سماء الله ، عند القرى البعيدة . مساء كئيب ، تصفر فيه الريح ، وضباب خفيف ، من انفاس الليل المقبل من بعيد ، يزحف على الكون . والصمت : كانه صمت الضجر في اول يوم ولدت فيه الخليقة .

هتف صالح سطل ، وهو يشير بيده الى منخفض من الارض :

- تفضلي يا خانم . وتفرجي على الحديقة .

فمشت سلوى نحو المكان . وكانت اشباح اشجار قليلة ، عارية ، تطل عليها من قلب الضباب . ومشت . وخطت اول خطوة ، داخل المكان . صعدت مرتفعا من الارض ، واطلت منه . ونظرت . ثم جمدت في مكانها ، ولم تعد تتحرك . دقيقة .. دقيقة .. ثلاث .. عشر . وهي لا تتحرك . كان قدرة الهية ، غرستها هناك ، فسي لحظة واحدة ، تعادل عمر السنين الطويلة ، جذع شجرة هرمة . غطست رجلاها فسي الطين البارد ، مثلما تفوص الجذور في بطن الارض . فتلك اذن ، هي الحديقة !!

قال صالح سطل :

- نعم ، هذه هي حديثنا ، وفيها ، كما تظنين ، الحشيش والزهر والشجر .

فتزلت سلوى الى الجبانة . وقعدت على احد القبور . وفكرت ، مرة اخرى ، بالوطن : ان هذا هو وطني ، اذن . في هذه الجبانة . وطن الموت والقبور . لا وطن الشجر والزهر والشمس والاطفال الفرحين ، يلعبون في الحدائق الخضراء . وبكت كثيرا . بكت هذه المرة ، على الوطن كله .

والمختار ، ايضا ، احب ان يبكي معها .

فعد على الارض ، واستند ظهره الى حجر احد القبور ، ونظر الى السماء ، وهو تيمس . وحكى لها ، عن ابنه محمد علي . كيف انهم اخوه الى الحبس . طويل واهبل . واذا تقائل مع الشرطة ، فانه يهجم عليهم مثل الثور الفلتان . صحيح . نعم ، صحيح . لكن ، لا يوجد مثله لولد طيب ، على ظهر الكرة الارضية . اذا مرضت امه ، يبيع قميصه - والله